الرواية و أسر الإيديولوجيا

قراءة في الأنساق الثقافية في رواية كريماتوريوم سوناتا لأشباح القدس

لواسيني الأعرج

أ/ رويدي عدلان

جامعة جيجل

الملخص:يحاول هذا المقال إلقاء الضوء على مختلف الأنساق الثقافية في رواية كريماتوريوم سوناتا لأشباح القدس لواسيني الأعرج ، أحد الأدباء الجزائريين البارزين في مجال الرواية الجزائرية المعاصرة ،وذلك بتطبيق منهج النقد الثقافي،من أجل الكشف عن المعاني المضمرة داخل النصوص الأدبية ، و التي عبر من خلالها عن وجهة نظره فيما يخص القضايا السياسية العربية كالقضية الفلسطينية ، والقضايا الإنسانية كقضية المنفى وقضية الموت.

Résum:Cet article met en évidence les différentes dispositions culturelles dans le roman ''Crématorium sonate pour les fantômes d'El Qods'' de Wassini El-Aaradj, l'un des plus grands écrivains algériens, dans le domaine de la narration algérienne moderne et ce, par l'application de la méthode de la critique culturelle pour la découverte des sens cachés dans les textes littéraires.

L'auteur Wassini El Aaradj a donné son point de vue pour ce qui concerne les problèmes politiques arabes comme le problème palestinien non résolu ainsi que les problèmes humains, tel que le problème de l'exil et de la mort.

توطئة:

خطت الرواية الجزائرية المعاصرة خطوات عملاقة نحو النضج الفني والحداثة واستطاعت في فترة وجيزة جداً أن تتجاوز الصعوبات التي واجهتها خصوصا في المرحلة الأولى مع الرواد الأوائل لتقفز في المدة الأخيرة قفزة نوعية و تحتل الصدارة ضمن الأجناس الأدبية الأخرى ،وتكتسب بذلك شكلا فنيا جديدا،وهذا بفضل جيل من الروائيين الذين راحوا يبحثون عن وسائل فنية وأساليب جديدة في الكتابة الإبداعية بحثا عن جنس أدبي متفرد يكون وليد العصر ويعالج هموم الإنسان المعاصر ،وهذا الشعور بالتميز والإلحاح الكبير على التجريب ولدّ طرقا جديدة تخص جنس الرواية،توظف العديد من الفنون و الأجناس الأدبية التي تنصهر مع بعضها البعض ليتم من خلالها تهجين الشكل الروائي،ومن ضمن الروائيين الذين اقتفوا أثر هذا النهج منطلقين في مغامرة روائية

جديدة نجد واسيني الأعرج، الذي يمثل تجربة روائية فريدة تخلخل الميثاق السردي السائد وتتجاوز التنميط الأدبي باحثة عن آليات جديدة في الكتابة ،فهي تقوم على تعددية لغوية

و تستثمر ما هو مهمش ومغيب ضمن المشهد الأدبي، كالاشتغال على مخزون التراث الشعبي والتاريخ الذي يمثل توجها جديدا لديه ،وتمثل رواية كريماتوريوم سوناتا لأشباح القدس ذلك النوع من الخطابات التي لم تتخلص من أسر الإيديولوجيا على غرار الروايات الجزائرية السابقة ،لذلك فسوف يتم الاتكاء على منهج النقد الثقافي كأحد المناهج ما بعد الحداثية، وهذا المشروع النقدي يؤكد على ضرورة الاستفادة مما تنتجه العلوم الاجتماعية والانسانية، على اعتبار أن النص يمثل منتجا ثقافيا يتم فيه البحث عن الأنساق الثقافية المضمرة والمتخفية داخل النصوص الأدبية لذلك يمكننا تقسيم هذه الأنساق الثقافية إلى ما يلي:

1-النسق السياسي والاجتماعي/حقائق مقنعة :

أ-الكتابة/سقوط سلطة الجسد/بحث في الهوية :الكتابة رسالة حضارية نبيلة والإنسان مادام مبدعا يكتب فهو فنان يؤدي رسالة سامية ويمارس وجوده بوعي، فالكتابة فعل إنساني قيمي، يمارسه المثقف، الكاتب الحر والناقد لمسيرة مجتمعه، "فهو نقد صادق بناء غايته التغيير إلى ما هو أصلح وبالتالي فالكتابة تبشر بالخير وتزرع الفرح والمحبة، وتفضح الظلم والعدوان والقهر"(1)، إذ أنها تترجم حالات المجتمع من أفراح وآلام وتكشف انتصاراته وهزائمه، وإضاءة مستقبلة وتوثيق فكري للآتين فتصبح الكتابة تجربة في البقاء وكيانا حقيقيا نابضا يستحضر موت صاحبه الغائب على المستوى الاجتماعي، فتصبح قضية إنسان الواعي الذي يعايش قضايا عصره لا كمتفرج ولكن كفاعل فيه، "لأن الكتابة سلطة تمارس وظيفتها في ضبط وتنسيق الإنتاج الفكري وتستشف الآتي فتنير له الدرب"(2)،يقول الدكتور رمضان بسطاويسي:"الكتابة وعي بالمستقبل بوصفه قضية إنسانية لأن المستقبل هو جزء من كينونة الإنسان التي تتحرك دوما بين قطبين : الماضي وما به من خيرات توجه الأنا وتشكل ملامحها الأساسية والمستقبل وهو الأفق الذي توجهه اللحظة الراهنة" (3)، فالكتابة في هذه الحالة هي تصور للوجود الإنساني واستحضار له ، قد أعادت إلى ذاتها حضورها وتجليلها لتثبت هويتها الحقيقية، فتصبح الكتابة بالنسبة لواسيني تعبيرا عن الذات في السعي نحو تحقيقها الكينوني في العالم، ومحاولة واعية من أجل تفسير ما يحيط بنا وما يتداخل معنا من ثقافات وهويات مختلفة، تقول الكاتبة الجزائرية زهور ونيسي "ظروف الكتابة لا يمكن فصلها عن وضع الثقافة في الوطن، إذ كل شيء يتأثر بغيره من المواضيع أو المجالات المختلفة" (4)، فثقافة الكاتب

تكمن من مدى اقترابه من الفهم الصحيح للعلاقات والصراعات والمشاكل المعاصرة له محليا ودوليا، فمي كتبت عن مجتمعها، وغاصت في أعماقه وعايشت انشغالاته دون أن تفهم مشاكله ولكنها كانت تحمل قدر كبير من الأخلاق السامية والذوق الرفيع والحس النبيل اتجاه وطنها الحبيب، ولعل ما جعل مي تسلك طريقها نحو كتابة تاريخ وطنها أنها تحاول البحث عن هويتها و تجسيدها على أرض الواقع وبالتالي فواسيني هنا يحاول إبراز علاقة الكتابة بالمرأة أي الجسد الذي تسقط سلطته وتتحول إلى بؤرة الكتابة لحظة الكتابة على كراستها النيلية، إذ تقول: " كانت أول شيء فكرت فيه قبل أن أطلق العنان لألواني ولأصابعي المرهفة. ثم تركتها وانسحبت نحو رسم الكراسة النيلية" (5)،فالكتابة هي البحث عن الحقيقة الغائبة و الغائرة في المجهول السحيق وهي في نهاية الأمر ممارسة لمستحيل واكتشاف لمجهول و إيقاظ لشيء معدوم ،فمي من خلال كتابتها تحاول استكشاف ذاتها عبر الخارج الذي يبدوا لها "بعيد المنال محاولة إشباع الفضول واستجابة لأنانية الذات وشطحات الرغبة و ارتعاشات الجسد" (6)،يقول أنيس منصور:"فالكاتب يتعذب و يتكوّى ويتلوّى ويتأوّه ولكن إذا واجه الناس عليه أن يقول ما يريح حياتهم ويهديهم على ما هو أفضل "(7)،أو ليست الكتابة عند مي هي نداء للآخرين كي تتواصل وتتحاور معهم؟ من أجل التحرر من قيود الموت، وبالتالي تمنحها الحياة فرصة العشق الجنوني، الذي يتجاوز الواقع ويروي المأساة الفردية والجماعية وكل ما يحدث هناك في القدس، "إذ أن الكتابة تحررنا من القيود والمخاوف والأوهام، وإنها الوسيلة الجميلة التي يصل الإنسان من خلالها إلى نفسه وإلى الآخرين"(8)، فتصبح الكتابة بمثابة المساعد بمفهوم غريماس على تحقيق الذات لفعل الوجود، فاللحظة التاريخية وأمل المستقبل يقومان بدور المساعد الإيجابي في تحقيق موضوع سردي عن طريق فعل الكتابة، وهو البحث عن الهوية، من أجل الفوز بالحرية والانبعاث الروحي والجسدي، وبالتالي كانت نقطة انطلاق من التاريخ وصولا إلى الحرية، إن الرغبة التي تتملك البطلة : الذات، هي البحث عن الهوية التي هي المحور الأساسي في الموضوع حيث نجد مي تعيش حالة إحباط كلي يظهر من خلال كتاباتها الأولى عن طريق الشعور بالضياع والألم، إذ تقول "أشعر أحيانا بأن الألم هو الذي يجعلني أتكلم وأصرخ بصوت مكتوم ، وكلما تعلق الأمر بالكتابة انتابني السؤال الخفي"(9) ،لقد غدت الكتابة وضعية مغايرة في رواية كريماتوريوم ، إذ فتحت لنا أفقا للاشتغال على جسد الوطن المصاب بالتمزق فأصبحت لا تعمل إلاّ حيث أماكن الهدم ، والتدمير والتخريب، حتى أنّ واسيني قد وظف فعل الكتابة ونسبه إلى المرأة التي تركت وراءها أثر المعنى، الذي في حدّ ذاته يضع سؤال الهوية في أقصى درجات التوتر، فلا زلنا لحد اليوم نخوض في قضايا الهوية

بصورة جدلية فارتبطت الهوية باستمرار مع الأنا النبيل المهدد من قبل الآخر الذي مثل ولا يزال يمثل الجحيم الذي ينبغي مواجهته،" فالآخر يضع قوانين ترغمنا ودون وعي منا على الاندماج معها ضمن الانتماء المشترك السلبي الذي يبعدنا عن الهوية الحقة ولهذا فضرورة المقاومة ترغمنا على امتلاك لغة صارمة تمكننا من التخلص من وهم الهوية القاتلة"(10).

ب- المنفي/ضياع الهوية و الموروث الثقافي: إنّ الحديث عن الهوية حديث مفخّخ والخوض فيه يقود إلى المغالطة والوقوع في الشك خصوصا لما يتعلق الأمر بالهوية العربية وذاتها ،و"يعتمد في الحديث عن الذات العربية على قانون الهوية المهدد بالمعتقدات والتقاليد، والأفكار و السلوكات، أي بتحديد ذات مغايرة عن باقي الذوات أو تنميط الأنا المخالف للغير، وقد يحدث هذا التنميط في الغالب عقديا وثقافيا بشكل انغلاقي، فأصبحنا ننظر بموجبها إلى الغرب من خلال ثنائية الأنا والآخر، فلم يكن الأنا في مختلف مساراته الحديثة والمعاصرة ، إلاّ ممجدا لهويته بشكل نكوصي متعال عن الحقيقة في علاقاته بالغير الذي كان بين موضوعه ويتمرس منزلته"(11)،حيث الاختفاء بالهوية كان تراثيا، فإنه لم يأخذ بمبدأ التعدد الضابط للوحدة الدالة على الهوية نفسها، وإنما نتناول الهوية تناولا أحديا مجد العرق العربي والعقيدة الإسلامية دون أي اعتبار للقصد الباقي للهوية العربية الإسلامية نفسها.

ولكن في حقيقة الأمر أنّ الهوية لها ما يدفعها بالمدّ الثقافي بحكم أنها تستمد جذورها عبر قرون طويلة من تاريخ الأمة العربية، ممّا يدفعنا للمحافظة على جذورها الممتدة في أعماق تاريخها المرتبطة بمفرداتها وعناصرها المتجذرة في أصولها ،إنّ الهوية لها علاقة بالثقافة واللغة والانتماء والدولة والمجتمع، "إذ ارتبط مفهوم الهوية بالمسألة الثقافية، فيري بعض علماء السياسة والاجتماع والنقاد في الآداب والفنون أنّ أزمة الثقافة هي في الحقيقة أزمة الهوية"(12) ، فما يجمع العرب مسلمين ومسيحيين أو عقائد أخرى هو التاريخ والثقافة، فمن الأصوات من تريد الانغلاق على أصولها والعودة إلى ما قبل الفتح الإسلامي وهناك من تنازعه التأثيرات الغربية وشكلت طروحاته وواكب روح عصره ، "ولكن في آخر المطاف بقيت الهوية العربية الإسلامية فضفاضة غير قابلة للتطبيق الدقيق، فهم مسلمون بلا عروبة بينما يجمع العرب كليهما"(13)،فالعربي يولد عربيا ولا يمكنه بأي حال من الأحوال أن يكون غير ذلك، لكنه إذا ولد مسلما أو غير مسلم يمكنه أن يعتنق الدين، "إذ تبقى الهوية هي الدليل على مولد الفرد وإطار تلك الولادة الزماني والمكاني تكون معه أينما كان، لا يستطيع تبديلها بأي حال من الأحوال"(14)،ولكن إذا ما رجعنا إلى الرواية ونبشنا في حياة مي فسنلاحظ عكس ذلك ، إذ بمجرد ما غادرت بلادها القدس متجهة إلى بلاد

أخر أمريكا وبعدما تأقلمت مع كل الظروف، فقدت كل ما كانت تحمله من دين وهوية وعادات وتقاليد وطنها الأصيل، فأصبحت تخرج للسهرات "أدخلني كوني بسرعة في عالم الجاز الذي كان يذهله(...) يعطيني موعدا في باره المفضل في مانهاتن أو في مطعمه في سوهو، هناك نلتقي نشرب ونرقص حتى أخر الليل"[15](...)،فالواقع الثقافي فرض عليها منطق العيش بذلك الشكل، وتسير على أفكاره وميولاته، يقول أمين معلوف:"لكل من يتبنى هوية أكثر تعقيدا سيجد نفسه مهمشا، إن شابا يولد في فرنسا من أبوين جزائريين يحمل في داخله انتماءين بديهيين ويجب أن يكون قادرا على الإطلاع بكليهما سواء تعلق الأمر باللغة أو المعتقدات أو نمط العيش أو العلاقات العائلية والأذواق الفنية، فإنّ التأثيرات الغربية تختلط بالتأثيرات العربية والمسلمة"(16)،لكن تبقى الهوية العربية تتميز عن باقي الهويات بسمتين أساسيتين وهما اللغة العربية والاسلام .

ج-الأندلس / الذاكرة المنسية:يعود بنا واسيني الأعرج إلى مطلع القرن الخامس عشر و إلى زمن سقوط غرناطة بالضبط وما كان من مذابح وتهجير العرب واليهود والمسلمين فتطهر الأندلس كوجه آخر، الذي عايش نفس التاريخ الذي تعيشه فلسطين عندما وجد الموريسكيون أنفسهم يطاردون خارج مدنهم وخارج تاريخهم، فنفس الملامح والإيقاعات ونفس الشتات والضياع والمآسي يعيدها التاريخ في فلسطين، وكأن تاريخ الإنسان هو تاريخ الحروب التي لا لون لها غير لون السواد الذي يخيم على العالم كسحابة نووية تحمل الموت ، حيث حلت ويكون مصير الأبرياء أكبر من أن يدفع حماقات حفنة من المعتوهين، فالزمن محتم عليه أن يعيد الأحداث لأنّ ما يحدث اليوم هو امتداد لمجموعة العوامل السابقة، فعندما لا يفهم درس التاريخ ويرسب الإنسان في كل امتحاناته المصيرية ، يأخذ العبر التي تجعله لا يقع مرة أخرى فيها،كانت الأندلس أرض الميعاد اتسعت أرجاؤها لتحتضن الناس باختلاف مللهم ونحلهم، دون أن تضع دفتر شروط قابس أساسه التمييز على أساس ديني، كان الاحترام متبادلا كافيا لأن يضع الاختلافات جانبا وينبه الملأ إلى أن هناك جوهرا يجمع شمل الجميع،تقول مي عن ذلك الزمن "دراما مشهديه حقيقية تعيدني إلى زماننا الذي لم يتعلم الشيء الكثير من تاريخه الذي تصنعه أياديه كل قرن"(17)،وتقول أيضا: "مدينة غرناطة التي ما تزال تنعم بقدر كبير من الحرية"(18)،الأندلس كانت المدينة التي أسست مدينتها على احترام الأديان على قبول اختلافات الآخر:"هل تصدق هذا؟ خط عربي زخرفة إسلامية أنيقة داخل كنيس يهودي؟ أي زمن نعيش ؟ صحيح أن الحياة لم تكن سهلة وربما يتخاصمون أحيانا ويصطدمون حسب الاختلافات في التصور، لكنهم كانوا يجلون بعضهم بعضا"(19)، كان الزمن الأندلسي ليس هو ذلك الزمن المفقود الذي

يختزن حضارة مدينة تشكلت داخل الفضاء كان يتسع للجميع إلى أنّ انفجار الأحقاد وتناسلها كالفطريات السامة التي تحفر مسالكا للموت، كانت كفيلة بأن تحوّل ذلك الزمن الإنساني إلى زمن تراجيدي، ليس لأنّ المسلمين طردوا من ممتلكاتهم شرّ طردة بل لأنّ الزمن الذي كان يزحف بثقة في الأفق كان زمنا حقودا، زمنا لا يؤمن إلاّ بسيادة حين على آخر ودين على آخر هذا ما يسمى بالحروب المقدسة باسم آلهة لا تعرف غير الحقد"(20)،في الأندلس ما يتكرر اليوم في فلسطين ، بعد أن كان الجميع قبل الانتداب الإنجليزي فلسطينيا و لا يهم بعد ذلك هويته الدينية والطبقية، والرواية تشير في ملامح سريعة إلى ذلك الزمن الذي يحمل الوباء القاتل الذي سمم مياه وأراضي فلسطين وهواءها ودينها وبالأخص شعبها، إنّ الأصولية مهما كانت سياسية أو دينية هي التي تولّد الحرائق فتجعل الحياة جحيما، بهذا الشكل أرادت هذه الرواية أن تتكلم لتقرأ مأساة وطن عبر مأساة امرأة لم تجد إلى كراستها النبيلة وألوانها الزاهية لمقاومة النسيان والضبابية التي تميز هذه القضية .

د- فلسطين وسياسة التهجير /نكبة 1948:في عام 1948 قررت بريطانيا الانسحاب من فلسطين فوافقت الجمعية العامة للأمم المتحدة على إنهاء الانتداب البريطاني على فلسطين ليسلم الاستعمار البلاد إلى اليهود بعدما قاموا بتهيئة العصابات الصهيونية لكي تقوم باستلامها من الإنجليز، فنجحت الصهيونية في سلب الجزء الأكبر من الأراضي الفلسطينية وأقامت فوقها دولتها ، وقد شهد هذا العالم أكبر عملية إجلاء وإبعاد جماعي لجماهير الشعب العربي الفلسطيني عن طريق التدمير والقتل والتهجير، تروي مي الأحداث التي وقعت في هذه الفترة فتقول،"عندما أعلن الإنجليز انتهاء الانتداب بعد أن سلموا كل شيء لجنود الهجاناه و الأرجون و الشتيرن، فرح الأهل(...) وظنوا أن الإنجليز صمموا أخيرا على مغادرة البلاد"(21)، ولكن العكس حدث فقد استهدف الاحتلال الاستيطاني الأرض كما استهدف الهوية الوطنية الفلسطينية، والقضاء على ثوابتها الوطنية والثقافية محاولا مسح ذاكرة الأجيال الجديدة وقطع كل الصلات التي تربط هذه الأجيال بانتمائها للأرض والوطن، إلاّ أن الشعب الفلسطيني وما يملكه من أصالة وانتماء أصرّ على استعادة كل ما ضاع من حقوقه، وعودته إلى وطنه وتمسكه بهويته، لقد كانت المرحلة التي مرّ بها هذا الشعب قاسية، وخاصة بعدما فقدوا الهوية وعاشوا مرارة التشرد والهجرة، ناضلوا من أجل تقرير مصيرهم والحصول على الاستقلال وممارسة سيادة فوق ترابه الوطني، والنضال من أجل التحرر الثقافي، وبالتالي التحرر السياسي والاستقلال الوطني ." في يوم الثلاثاء 20 ديسمبر 1949 ، اتخذت العرب قرار بالإضراب لمدة ثلاثة أيام تنفيذا لبيان صدر عن الهيئة العربية" ، إنّ الأحداث التي أعقبت قرار التقسيم الفلسطيني زخرت بمختلف الصور

والمشاهد والتطورات السياسية في فلسطين وبلاد العرب، وما تبعه من أحداث تراجيدية و ممّا لا يزال يملأ الأذهان والقلوب بشجونه وآلامه، وما خلفته من وقع على نفوس الفلسطينيين "بهيك بساطة قرّروا تقسيم فلسطين"(22)،رواية كريماتوريوم تحمل الكثير من الأسئلة وجميعها يدور حول محور واحد وهو الوطن ، حاول واسيني الأعرج أن يطرح لنا الأسئلة في روايته محاولا الإجابة عنها بعدما نبش في تاريخ هذا الوطن العريق"والذي يعتبر قضية سياسية تتشكل منها عدة أسئلة، سؤال الانتفاضة أو سؤال الزمن أو سؤال السلام وأخيرا سؤال الفن"(23).

2-**النسق الحضاري/أسر الإيديولوجيا:**

أ-المرأة/الكتابة/ الجسد:تعطينا الرواية نظرة واضحة حول صورة المرأة (مي)، الشخصية البطلة التي مثلت الدور الأساسي في سير الأحداث ، وشكلت الرابط السردي داخل العمل الروائي فمنحته بعدا تخييليا ساهم في بناء الفضاء الدلالي للنص ، وقد أحسن المبدع اختيار الأنثى على حساب الذكر في روايته هاته ، وهذا أكيد كان مقصودا من قبل الكاتب، أمّا السؤال الذي يطرح نفسه، ويبحث عن إجابة ملحّة، هو ما طبيعة الصورة التي أعطاها واسيني لهذه المرأة ؟ و ما علاقة ذلك بالموضوع الرئيسي للرواية؟.

تمثل المرأة في كل المجتمعات ذلك "الوطن الذي يحنّ إليه المرء والمنزل الذي يألفه الفتى و الفراش الذي يفترشه الذكر، إنها الحضن الذي يأوي إليه الرجل، كما يأوي الطفل إلى حضن أمه، ولا غرابة، ففي حب المرأة شيء من محبة الأم، والشوق إليها بعض من الحنين إلى رحم الأم"(24)، فمند القديم والرجل يتغزل بها، ويراها أجمل شيء في الوجود فـ"المرأة زهرة الوجود وشداه وأنواره (...) وجمالها هو الأسنى والشوق إليها الأقوى، والوجد لفقدها هو الأعظم، وذكرها هو الأحب وعشقها هو الأبهج، أمّا وصالها فهو الأمتع"(25)،وإذا عدنا إلى مجتمعنا العربي، وبالأخص إلى العصر الجاهلي، سنرى بأن المرأة اتخذت عند الشاعر العربي صورا عديدة، مركزية ومن هذه الصور صورة المرأة العاذلة، الموءودة، الملكة، الصنم المعبود والمعشوقة...إلخ، التي تعمل فيه هذه الأخيرة على استمالة الشاعر، أو استمالة الشاعر لها،فالمرأة كانت تعتبر دائما جسد بالنسبة للآخر، وطعما لذيذا لابدّ من تذوقه، وآلة يجدر بالآخر أن يتملكها، وأن تنصاع لأوامره، فكان حضورها في مجمل الروايات – خصوصا في عصرنا هذا – حضورا قويا، لكن في صورة ذلك الجسد الذي يستهوي الرجل ليس إلاّ، وهذا ما نراه في المجتمعات المعاصرة حسب المثل الإنجليزي الذي يقول "المرأة حضورها لكي تنظر إليها، لا لكي تسمعها"(26) ، وحتى الصوفي، كانت له نظرة اتجاه المرأة، وهي نظرة

خاصة، كانت في بعض الأحيان، تنقلها من عالمها البشري النّاسوتي، إلى عالم آخر هو أقرب إلى البعد الرمزي، باعتبارها "كائنا إلهيا، وإن تبدى في صورة دنيوية مادية"(27).

ولذلك سلموا بأنها المركز الذي ينبع منه حنان الكون، أمومته وعطاءه، إذن فهي "منبع الخلق، بوصفها علة الوجود، ومكان الوجود"(28)،وقد طغت هذه الصورة على الكتابة الأدبية، فقد أعطى راسين مثلا لجلّ مسرحياته التراجيدية عناوين نسائية، وأكد على أن الشخصية التي تخلق الفتنة، وتتحمل التراجيدية الإنسانية، تكون في أغلب الأحيان امرأة لأنها تفتقر بشكل وجودي، وليست إلا حضورا ثانويا يتلخص في الولادة، وإعادة الإنتاج فكيف كان حضور الجسد الأنثوي في الرواية؟، من خلال تتبع فصولها سوف نلمس خبرة الروائي بالثقافة الجنسية،سواء أكان هذا بقصد أو دون قصد، فهو واقع لمسناه لدى هذا المبدع الذي جعل ثيمة الجنس موضوعا يخترق الكثير من رواياته، ما جعلنا نفكر في أنه يحاول اقتناص القارئ عبر هذه الثيمة التي غلبت على جل الكتابات الأدبية، في عصرنا هذا وهي تشبه إلى حدّ كبير الأفلام التي تبثها القنوات الغربية والعربية والتي يكون فيها حضور مكثف لعنصر المرأة، والتي تظهر روتينية متواصلة،جنبا إلى جنب مع الرجل كأفلام الكوميديا، الأكشن، الرومانس...إلخ، لأنّ المرأة لها حظوة كبيرة في نفس الرجل، فلا يرى فيما يشاهده متعة إلاّ بحضورها، لأنها تلعب في نظره دورا مثيرا من خلال أساليب التمويه التي تلصقها بجسدها، تكتب مباشرة على جسدها، تعطي عناية خاصة لفتحات جسدها عينيها وفمها، أنها ترسم و رسمها تكثيف لرغبتها، والرجل تتولّد لديه حساسية خاصة نحو هذه الرموز تقول مي:"انتبه لي أخو صديقتي، فدعاني إلى محلّه ليمنحني قليلا من الشوكولاتة، كان يعرف جيدا أني لا أملك أية قوة أمام لذة مذاقها وهي تنكسر بين أسناني، منحني الشوكولاتة، وقبلني على خدي ثم انتبه لأنوثتي الصغيرة، فمد يده صوب نهدي الصغير ليمسكه داخل كفه، كدت أستسلم له كعصفور، قبل أن أفلت من يده راكضة صوب الشارع، ومتذكرة قول أمي: أوعي تترك حد يضحك عليك ويمسكك ، أدركت يومها بدون أن يعلمني أحد ببصيرتي الخفية، بأن جسدي يتحول إلى إرث خفي علي أن أعرفه وأحميه، لذا كنت كثيرا ما أنظر إلى نفسي عارية في المرآة، وأتأمل كل جزيئاته."(29)،يمكن لنا أن نتصور بعدا آخر، يجعلنا نتلمس قصد المبدع، ويتضح هذا البعد في أنه يحاول أن يظهر لنا صورة الأنا التي تعاني كبتا جنسيا، ليظهرها في صورة تنم عن الشهوانية المبالغ فيها، والتي لا ترى المرأة كيانا وشخصا، وإنما جسدا مرغوبا، حتى وإن كان هذا الجسد لم يبلغ أشده بعد.

هو واقع انتشر صداه في العالم الغربي اجمع، واقع مرّ، انتاب الأنا بعد انفصالها عن الدين وتغذيتها بما يفسد الأخلاق وربّما حاول المبدع أيضا أن يبرّر تلك القيمة التي كانت تقدم للمرأة وسط هيمنة الرجل، ثقافة الذكر، تلك القيمة التي كانت تركز على دونية المرأة في كافة مناحي حياتها، سواء اجتماعية ، سياسية ، أو اقتصادية أو فنية...إلخ، ما جعل المرأة تسلم بذلك، وتعمل على تبني هذه البنية الإيديولوجية تقول مي "يوم ولدت، ولد معي جسد آخر، قالوا لي في البيت العامر بالنساء إنه توأمي، فانقسم جسدي لنصفين مثل الفولة الصغيرة، جزء مني كان ملكا للمحيط والطبيعة، حبيس الأرض والقوانين القبلية لم يكن يعني كثيرا، وجزء أخر سيد نفسه"(30)،ومع بلوغ هذا الجسد، تحوّلت النظرة إليه ككيان إنساني، مبدع قادر على العطاء، فقد أصبحت مي تمثل قمّة وعي المرأة وقدراتها باعتبار أنّ "الإبداع بمثابة المرآة التي تعكس الذات وتميزها"

فقد علمت هنا على تغيير الأفكار السائدة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بمشاركتها في فعل الرسم، وبدخول موطن الفن التي أصبحت على إثرها فنانة مرموقة، تحاكي بأناملها الجميلة خطوطا ملونة، تشبه خطوط حياتها، فقد استطاعت أن توصل صوتها، وتثبت نفسها، وتسمع صرختها وتؤكد قدرتها على تحمل ما لم يتحمله الرجل(كمغادرة زوجها لها والتكفل لوحدها بتربية ولدها)، وعلى بلوغ ما لم يبلغه . لكن مع سقوط هذا الجسد، وتضاؤله واضمحلاله، اتجهت بالذات نحو شيء آخر مختلف تماما هو الكتابة، تقول مي "لقد تضاءل سلطان جسدي، وأستطيع أن أكتب بحرية تامة"(31)، إذن فقرار الشروع في الكتابة ، كان سببه أفول المادة/ الجسد، وبما أنّ الإنسان جسد و روح، فاضمحلال الجسد، يجعل الروح تبحث عن خلودها، "ما الذي يدفعني الآن نحو الكتابة ؟ ربما...الرغبة في الحياة...ربّما كذلك، و إلّا لماذا نكتب إذا لم يكن المعنى الكبير هو استمرار الأشياء حتى عندما نندثر؟ أشعر أحيانا بأن الألم هو الذي يجعلني أتكلم، وأصرخ بصوت مكتوم...وكلما تعلق الأمر بالكتابة، انتابني السؤال الخفي الذي لا سلطان لدي عليه: ماذا سأكتب ومن أين سأبدأ؟"(32)،إنّ الكتابة عند مي حنين للوطن، و إحياء للذاكرة، جعلها تفكر بالكتابة وتنسى الموت بشهوتها. "فكرت أن أنسى الموت بشهوة الكتابة، الإصرار على فعل شيء يضع الخوف من النهايات، ورائي بهذه الكراسة النيلية الطفولية، سأقاوم جبروته، وسأمدد في عمري بعض الشهور كي لا أموت"(33)،فالكتابة تبدأ " من حنين الذاكرة من وهج التاريخ من الكينونة الأولى"(34)، ومجد الكتابة دائما يكون ببقائها وخلودها. وهذا ما يجعلنا "نربط الكتابة بالحياة من أجل مجابهة

الموت"(35)، ولعله هاجس يتواتر كثيرا في روايات واسيني الأعرج، روايات المواقف الأيديولوجية بامتياز.

ب-الموسيقى كلغة عالمية/ بحث عن الذات: تمثل الموسيقى لغة إنسانية أخرى غير لغة الكلمات ، نظرا لما تحمله من نزعة إنسانية وخبرة جمالية مصاحبة لها تمثل أعمق الخبرات الجمالية والإنسانية،والرواية التي بين أيدنا ركزت على ثيمة أخرى، مرتبطة بالشخصية الثانية يوبا ، نسق آخر ولد من رحم مي ، ليقول حياتها و مأساتها ، فالموسيقى، عرفت دائما، وفي جميع المجتمعات البشرية، بأنها لغة المسرّة، والمتعة، فهي تساهم بشكل هام في استقرار الثقافات واستمرارها وخلودها في مجتمعاتها،لكن يوبا كانت الموسيقى تمثل له شيئا آخر تماما ، فقد حاول أن يجسد سوناتا الغياب ، "أراد من نوتاته أن تلامس أشباح (مي) تسترجعها، تخلدها، وتستخرج أحلامها هذا هو بالضبط مفصل السوناتا ، التي تجسد أحلام مي، وهي تفتش في جرحها عن لون لمدينتها المسروقة"(36)،إذا فالرواية أرادت دائما أن تنهض في عمقها على الموسيقى في التكرار والترديد والتناغم ،لقد اتخذت السوناتا، منذ بداية الرواية إلى نهايتها منحى آخر تماما، فقد أصبحت تمثل نسقا آخر أراده لها المبدع، فغدا بذلك لازمة من لوازم الموت، مؤكدة على الجو الذي يطغى على الرواية،وبهذا نستطيع أن نجيب على السؤال المطروح، فيوبا أراد أن يفتح أبواب الموت التي فصلت بينه وبين مي ، أراد أن يبحث عن ذاتها... عن جراحها وآلامها، حتى تخلّد كل لحظة، وتغدو وقتها أبدية، "فمن جديد خط من النوتات المتتالية من الحركة الأولى: الأداجيو (...) تمتم وهو يبحث عن أكثر الإيقاعات حنينا (...) ويفتح أمامه الأبواب الثقيلة المغلقة، أبواب الموت التي كانت تفصل بينه وبين أمه"(37)،لقد حاول يوبا ، بإيقاعاته أن ينسج سوناتا لأمه تقول حياتها مأساتها، ممّا جعل منها أناشيد جنائزية، قائلا في نفسه: " لابد أن تلبس السوناتا لباس هذا الحداد وإلاّ فلا معنى لوجودها"(38)،لتصبح الموسيقى في نظر يوبا ، متعلقة بكل المشاعر الحزينة الهائمة في سماء الموت و الفناء، مؤكدا على مقولة لـ شيكسبير في تاجر البندقية، الذي يقول: إذا خلت نفس إنسان من الموسيقى ولم تتحرك مشاعره لسماع الأصوات المتناغمة ، فهو إنسان لا يصلح، إلاّ للسلب والخيانة والخداع، فيوبا أراد لأمّه (بالموسيقى)، أن تظل حية في أنين نوتاته وإيقاعاته إنّه البحث عن الوجود في كل مكان حسب الفيلسوف الألماني هيدجر، وكأن الموسيقى هي جزء من النص، تتوحّد معه ممثلة رجعا أو صدى، مخالفا لكلمة، يتماهى كل منهما مع الآخر نحو رسم العالم التحتي للرواية، السائر في طريق الضياع والفناء، أراد يوبا من تلك الأشباح ، أشباح مي أن تبرز ملامحها، وتعود للظهور من جديد ،ربّما عانى المبدع – في نظرنا- للوصول إلى غاية فنية محددة فلا شك أنه

وظف هذه الثيمة (الموسيقى) ليحوّل نوتاتها إلى كلمات قادرة على استيعاب تلك الشحنات الفنية التي تظهر بالخصوص عند يوبا.

ج- **الرسم/ بلاغة تشكيل الذاكرة:**لطالما كان الفن / الرسم عند مي ، ذلك المسكن الروحي الذي يقيها من الماضي، والحاضر الذي كان يمشي نحو الهاوية، كان الفن ينسيها حرقة الأب، الذي لم يعرف كيف يروض جموح الذكر الشرقي، في أعماقه ولا حبه السّرّي لابنته، ومن جد أندلسي وجد نفسه يفقد مملكة ليرمى في جحيم المنافي،لقد خلقت هذه الجراح شحنات نفسية سببت لمي ضغطا كبيرا فلم تجد سوى الرسم سبيلا لرفعها، فلطالما كان هذا الفن محاولة منها في تفسير الحياة، وإبراز نظرتها إلى الوجود إنه خطاب صامت، لكنه كان مسموعا بما أضفاه من التأمل، كما يمكن اعتباره "متعة العقل الذي ينفذ إلى صميم الطبيعة ويستكشف ما فيها من عقل يبعث فيها الحياة، هو فرحة الذكاء البشري، حين ينفذ بأبصاره إلى أعماق الكون، لمن خلقه مرسلا عليه من أضواء من الشعور"(39)،لقد كانت مي تشعر دائما بالحيوية، وهي ترسم فتستطيع التعبير عن أحلامها، وانفعالاتها، لأنّ: "الفن هو تعبير عن أعمق غرائزنا وانفعالاتنا وهو نشاط جدي ليست غايته أن يشغلنا عن أنفسنا بقدر ما يزيد من حيويتنا"(40)،وقد وظف الرسم في الرواية من طرف المبدع ، باعتباره فنّا مكانيا ليمتزج مع السرد وهو فن زماني لتشكيل جمالية متكاملة، تحمل إيقاع الزمان وامتداد المكان، فالرواية توظف جمالية الرسم عبر أشكال مختلفة، ومن هذا التوظيف نجد الحديث عن الألوان ورمزيتها ودلالتها وتصنيفها فضلا عن استعراض بعض المعارف عن فن الرسم، بما أن الرواية تتسع لكل هذه الشحنات الدلالية.

3- **النسق الفلسفي/ رؤى التصوّف والميتافيزيقيا:**

أ- **صورة الفراشة، صورة العشق في الموت/المعطى الصّوفي:**الفراشة ثيمة ساعدتنا كثيرا على تأويل أيقونة العشق والحب والفناء في المحبوب ، لأن الحب هو حالة قصوى من حالات الشوق الإنساني كالخوف والقلق والموت ، فالإنسان كائن يحب ويهوى، بل هو لا ينفك عن حبّه للحياة التي تسري في كيانه.

مشاعر اختلجت مي ، سكنت روحها وذاتها ، حب سرق منذ الطفولة، وأصبح عشقا تنامى في جسدها المحمّل بالأنوثة، عندما أصبحت امرأة تقول: "لو كنا ندري ذلك، ونحن أطفال لما تمنينا أن نكبر بسرعة لنمتلك حق العشق، والحماقات السرية"(41).

لقد كانت (مي) تبحث دائما عن اللذة القصوى، تلك اللذة التي وجدتها في جسدها، الذي كان كل يوم يزداد هشاشة " كنت كلما شعرت بحاجتي إلى الحب استحضرت من اكتشفته يومها، لأكمل هزاتي الخفية"(42)، ويتواصل هذا البحث عن الحب إلى

أن يصل إلى درجة العشق عند (مي)، ولا نقصد بالحب هنا حب المرأة للرجل، فلربما نستطيع تشبيهه بما يحدث مع رابعة العدوية ، أشهر المتصوفات ،ف (مي) كانت شهيدة العشق الوطني التي أحبت وطنها، والحبيب هو الوطن، فلا يمكن لها إلّا أن تحبه وتشتاق إليه، ولا يمكن إلاّ أن تحترق بناره "كالفراشة التي تنجذب إلى الضوء وتحترق بنوره فهي تعبر عنه بقولها: "هناك حيث الطفولة المسروقة، الأشواق المسروقة، المدينة المسروقة والذاكرة المنتهكة والحب المقتول"(43)، فالعشق نوع من العذاب ولا يختار إنسان عاقل عذاب نفسه، "لأن العشق لا ينتسب إلى رأي العاشق فيملكه بامتلاك رأيه، ولا يرد إلى العقل فيتمكن من إدراكه، كما يدرك سائر الأمور"(44)،لكن مي تراه عكس ذلك فقد كان فهو ما كان ينسيها عذاب المرض والألم، وكانت تشعر حينها بنوع من اللذة، فقد كان العشق يوازي الفناء في نظرها، باعتبار أن: العشق هو سيد الخلق ، فمي تشبه رابعة العدوية ، التي انساقت إلى نوع من الحب "الذي قيل عنه بأنه العشق الذي ينطق، والشوق الذي يقلق، والوجد الذي يحرق"(45) حالة عاشتها مي، وما المحرقة إلا نسق ظاهر تعبيرا عن نسق مضمر، هو محرقة النفس، وهذا المحرقة في نظرها كانت ستمنحها الخلود بعد الفناء، الذي سيجعلها تحيا مرة أخرى في وطنها المعشوق، فتجربة الحب بالنسبة لها طعم للذة الحسية، ومطعم بنشوة روحية، هذه التجربة التي تدق على الوصف لا يمكن أن نعيشها خارج الحب، فالرغبة في البقاء والخلود والعودة إلى الوطن والعيش في كنفه ، جعل مي تعشق هذا الأخير إلى حد الفناء، لأن الرغبة تولّد فينا إحساسا رهيبا يمكن وصفه بنار تتأجج في الصدر "إنه هاجس الصوفي أمام الزمن والفناء، هاجس الخلود والبقاء"(46)،من هنا لم يسكن شوقها، ولم يخمد وجدها إلى بفنائها عن بدنها والفناء هو مطلب العاشقين الذي لا مطلب سواه ، لم تتصور نفسها فاقدة كل شيء ، فقد حاولت بكل الطرق والوسائل أن تحقق الوصال بينها وبين وطنها باستخدام **رمز الفراشة**، وهي تعيش رحلة العودة.

ب- **جدلية الموت/ الترجيديا الواسينية:**لكأن الذات الواسينية في هذه الرواية، تبحث عن جواب لسؤال سكن الذات الإنسانية ككل إنه سؤال الموت و المصير الذي شغل الفكر القديم والمعاصر،الرواية منذ بدايتها إلى نهايتها تتمحور حول موضوع واحد هو الموت ، فهو يسكن كل جملة وكل كلمة، بل كل حرف وصوت ترعرع في الرواية ونمى فيها، انبثاقه كان من العنوان، ليتغلغل في عالم الرواية وينتشر فيها كالسرطان، ويشق طريقه إلى شخصيتها، ويتمركز في ذات مي: بطلة الرواية، باعتبارها الشخصية الرئيسية.

فثيمة الموت هاته مشكلة من المشكلات التي "شغلت غير قليل من تفكير الفلاسفة والمفكرين، فصدرت تأملات ميتافيزيقية، وآراء فلسفية، واجتهادات فكرية شتى عبر

التاريخ الفكري الطويل للإنسان، وعولجت المسألة – بكثير من التوسع – على ضوء القضايا الآتية: الموت نقيض الحياة، الموت فساد الحياة، الموت مرادف للعدم/الجسد وغير ذلك"(47)، فالإنسان تساءل دائما عن الذي يستحق الكراهة الحياة أو الموت، كما تساءل عن مكمن الشقاء والحزن أفي الحياة أم الموت، أم فيهما معا!!

وقلق التساؤل والعذاب الذي يصيب الإنسان ويجعله يفكر:"لماذا قدر له أن يموت؟ لماذا أنا بالذات؟ لماذا لا أبقي في الحياة ، دون أن يعتريني الفناء (...)فراية القلق الأسمى الذي يخيم على الحياة كلها إنما هو ما نسميه الموت و ليس قلق الموت مجرد قلق بعيد ينتظرنا في آخر الطريق، بل هو قلق دفين، يندرس في كل خبايا الشعور، حتى إننا لنكاد نتذوق طعم الموت في كل شيء"(48)،وإذا كان موقف الإنسان عامة من الموت هو هذا الموقف الحاد ، فإن موقف المبدع والفنان منه أكثر حدة، "لأنّ إحساس المبدع بالشخصانية التي يضادها ويكسرها الموت إحساس فائق متضخم ، فالإبداع يضيف إلى قيمته الفردية وإلى كتلته الإنسانية أضعاف أضعاف"(49) فالكاتب يرى الموت غير ما يراه غيره.

-الهوامش:

1-بشير يخلف : الكتابة في البوح و الإمتاع ، مجلة ثقافة ، ع3-4مارس2004، ص35.

2-سيد قطب و آخرون : في أدب المرأة ، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، ط1 ،2000، ص113.

3-بشير يخلف : المرجع السابق، ص36.

4-المرجع نفسه ، ص37.

5-واسيني الأعرج: كريماتوريوم سوناتا لأشباح القدس، منشورات الفضاء الحر، ط1،2008، ص155.

6-عبد الملك مرتاض: سؤال الكتابة ، مجلة عمان ، ع115، كانون الثاني،ص18.

7-بشير يخلف: المرجع السابق، ص 37.

8-آمنة بلعلى: المتخيل في الرواية الجزائرية ، دار الأمل، الجزائر، (د.ط) ،2006، ص170.

9-واسيني الأعرج :المصدر السابق، ص146.

10-عبد القادر بودومة : الكتابة ...تدمير الهوية، مجلة الاختلاف ، ع3-4،أيار 2003، ص54.

11-محمد العربي ولد خليفة:المسألة الثقافية و قضايا اللسان والهوية، ص83.

12-محمد العربي ولد خليفة: المرجع السابق ، ص83.

13- ليلى الأطرش: الهوية ...الضياع والأوهام ، مجلة عمان،ع124، تشرين الأول 2005، ص10.

14-غادة طويل : المرجع السابق ، ص 9.

15-واسيني الأعرج : المصدر السابق ، ص274.

16-أمين معلوف:الهويات القاتلة قراءة في الإنتماء والعولمة، تر: نبيل محسن، دار ورد للطباعة و النشر و التوزيع ، دمشق، ط1،1999 ، ص 8.

17-المصدر نفسه ، ص342.

18-المصدر نفسه ، ص 344.

19-المصدر نفسه ، ص351.

20-نبيل سليمان: من الجذر اليهودي إلى الجذر الصهيوني في الرواية العربية ، مجلة عمان ،ع121 ، تموز، ص 35.

21-واسيني الأعرج : المصدر السابق ، ص 126.

22-المصدر نفسه ، ص 124.

23- نبيل سليمان: شواعل روائية ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق، (د.ط) ،2003، ص 83.

24-علي حرب :الحب والفناء تأملات في المرأة والعشق والوجود ، دار المناهل للنشر والتوزيع ، لبنان،ط1 1990، ص 23.

25-المرجع نفسه ، ص 21-22.

26-عبد الله محمد الغذامي: ثقافة الوهم مقاربة في المرأة والجسد ، المركز الثقافي العربي، بيروت- الدار البيضاء- ، ط1،1998 ،ص88.

27- سفيان زدادقة : الحقيقة والسراب قراءة في البعد الصوفي عند أدونيس مرجعا وممارسة ، منشورات الإختلاف ، الجزائر ، ط1،2008، ص 307.

28-أدونيس: الصوفية والسوريالية ، دار الساقي للنشر ، بيروت ، ط2،1995 ، ص 107.

29-واسيني الأعرج : المصدر السابق ، ص 91.

30-المصدر نفسه ، ص90.

31-المصدر نفسه ، ص 119.

32-المصر نفسه ، ص 153.

33-المصدر نفسه ، ص 141.

34-جمال فوغالي: حنين الذاكرة ، مجلة الثقافة ، ع 12، جوان2007 ، ص190.

35-آمنة بلعلى :المرجع السابق ، ص 167.

36-زهرة ديك : الحرية وخطاب الجسد ، مجلة الثقافة ،ع3-4 ،مارس 2004، ص 19.

37-عمر مهيبل : من النسق إلى الذات قراءة في الفكر العربي المعاصر، منشورات الإختلاف، ط1،2001، ص13.

38-واسيني الأعرج : المصدر السابق ، ص 32.

39-المصدر نفسه ، ص 39.

40-المصدر نفسه ، ص 30.

41-كاميليا عبد الفتاح: إشكاليات الوجود الإنساني –دراسة نقدية تطبيقية في الشعر الواقعي و الحداثي- ، دار المطبوعات الجامعية للنشر، الإسكندرية ،(د.ط)، 2008، ص5.

42-هربرت ريد:إلى الجحيم بالثقافة ، تر:عمر الفاروق عمر،الهيئة المصرية للكتاب والنشر، القاهرة، ط1، 2007 ، ص 151.

43-المصدر نفسه ، ص 31.

44-المصدر نفسه ، ص 91.

45-المصدر نفسه ، ص 22.

46-عبد الحفيظ خطاب : إشكالية الحب في الحياة الفكرية والروحية في الإسلام ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، (د.ط) ، 2004 ، ص59.

47-علي حرب : المرجع السابق ، ص70

48-نبيل سليمان : شواغل روائية ، ص 15.

49-المرجع نفسه ، ص 73.